

الواقعة بين ١٩٠٤ و ١٩٢٢ ظهرت في فلسطين حوالي ٥٠ صحيفة عربية ، وقبل انفجار ثورة ١٩٢٦ اضيفت عشر صحف اخرى على الاقل ، كان رواجها واسعا .

ان عوامل كثيرة ، ليس هنا مجال التوسع فيها ، قد جعلت من فلسطين مركزا ثقافيا عربيا مهما ، وكانت الحركة الدائبة للمبتغين المهاجرين من والى فلسطين عاملا اساسيا في ترسيخ الدور الثقافي لفلسطين ، وكذلك انشاء الجمعيات والنوادي الادبية الذي بدأ منذ مطلع العشرينات . على ان هذا التطور الثقافي الذي كانت تغذيه باتصال افواج من المتخرجين العرب من بيروت والقاهرة رافقته حركة ترجمة واسعة النطاق عن الفرنسية والانكليزية ، ولا شك ان الرسائل الاجنبية والتي كانت كثيرة بحكم خصوصية فلسطين بالنسبة لها لعبت دورا بارزا في نشر الجو التعليمي في المدن .

ان الذي يعيننا هنا ليس الجو الثقافي العام في فلسطين خلال الثلاثينات ، على اهميته ، ولكن تعينا على وجه التحديد الانعكاسات التحريضية التي ادى اليها من خلال علاقته مع تعاقم المآزق الاقتصادي والقومي ، ومن الممكن قياس هذه الانعكاسات ، في اشكالها ومظاهرها المختلفة والمتعددة من خلال رصد الحركة الادبية في فلسطين في تلك الفترة ، ومن خلال رصد تطور ما يمكن ان نسميه بالثقافة الشعبية ، وهو ذلك الطراز من الوعي الذي ينمو في الريف الفارق في مجاهل الامية ، ولكن في الوقت نفسه — الذي يعانى من التحدي اليومي المباشر بصورة تجعله دائم التيقظ . انه من الواضح ان متغني المدن في معظمهم ، لهم منشأ طبقي مختلف عن ذلك الذي كان « للدعاة » الريفيين ، ورغم انهم كانوا ينتمون الى العائلات الاجتماعية او البورجوازية التجارية او الصغيرة في المدن ، فقد دفعتهم ظروفهم ، في مرحلة دقيقة من حياة بلادهم ، الى لعب دور فريد من نوعه ، فقد كانوا دعاة ثورة بورجوازية ولكن هذه « الثورة البورجوازية » التي كانوا هم طلائع دعوتها لم تكن موجودة وجودا ماديا حقيقيا بلورا في حركة ذات نفوذ وذات برنامج ، كان الميدان متروكا لهيئة القطاع (الذي بذل كل ما لديه من جهد لمحاولة امتصاصهم تحت قيادته وتركت هذه المحاولات بصباتها بوضوح) ولذلك استطاع هؤلاء المثقفون ان يكونوا اكثر طلائع اذ انهم لم يكونوا

مرتبطين بوجود حقيقي او قاعدة صلبة لهذه البورجوازية ولذلك بالذات كانت الحدود التي ينبغي لهم التقيد بها بحكم منشأهم الطبقي ، حدودا مائعة يسرت لهم التقدم في دعواهم اكثر من الشعراء والادباء الذين يوازونهم ، طبقيا وثقافيا ، في البلاد العربية الاخرى ، في الفترة ذاتها . اما في الريف فقد كان « القوالون » ، بحكم تجوالهم واحتكاكهم بالفلاحين ، يطورون نوعا من الزجل السياسي الذي كان يعكس هموم ومطامح الفلاحين بتصاعد يتناسب مع تصاعد الصراع الذي كانت اسبابه تزداد اتساعا وعمقا ، وفي الريف يشكل الشعر الشعبي ، وكل ما يتفرع عنه ، طبقيا من طقوس الحياة وتقليدا من تقاليدها يزداد رسوخا مع الوقت ، ومن هذه الناحية يصبح لهذا الشعر الشعبي ، الذي يتطور شكله النهائي من خلال اسهامات لا حصر لها وازمان متطاولة وصددمات اجتماعية متكررة ، سطوة تشبه سطوة الاعلام المعاصر .

ان ميكانيكية حدوث ذلك كله ، وطبيعة الصدام المركب والمعتد على صعيد الثقافات بين الدعوة الى الثورة والدعوة الى الاستكانة ، والتي تأخذ اكثر اشكالها تعقيدا وبلطا في الريف المتخلف على وجه الخصوص ، هي مسألة ليست من اختصاص هذا البحث هنا ، ولكن مع ذلك لا بد من الإشارة الى ان كثيرا من العناصر التي يبدو لاول وهلة انها ستلعب دورا سلبييا في هذا الشأن ، (مثل امام المسجد ، على سبيل المثال ، وهو اكثر الدعاة في الريف نفوذا) لا تفعل ذلك بالصورة المطلقة التي تنفخ الى الخيال ، وفي فترات معينة يكون مستوى التناقض الوطني والطبقي قد بلغ حدا يستلزم حتى من امام المسجد ان يبرر مكانته ، ومثل هذا العمل ، ان لم يؤد الى نتائج ايجابية مباشرة ، فهو يخلخل بالنتيجة « سطوة العصبة » التي لرجل الدين في الريف . من هذه الزاوية كان الصراع الثقافي بين الدعاة الثوريين وبين الرجعيين (في الريف) وبين الدعاة الثوريين وبين العمديين والرومانطيكين (في المدينة) ، يكسب في كل يوم ، لمصلحة الثقافة الثورية ، مساحة جديدة . لا تعرف كاتبها او اديبا فلسطينيا واحدا في الفترة التي نحن بصددنا لم يخض غمار الدعوة المناهضة للعدو الاستعماري بهذه الدرجة او تلك وعلى هذا المستوى من الوعي او ذلك ، وقلة من الشعراء